على كنز استحقاقاته ما يكتسبونهُ بآلامهم ويلوح في السماء والارض نور فضائلهم. وكما ان غبارة الوثنيين واضطهاداتهم ربحت للسماء في الاجيال السابقة جيشاً جرّاراً من الشهداء رجالاً ونساءً فتياناً وعذارى حملوا اغصان النخل رمز الانتصار وقد تضرّجت ابدانهم بدمائهم وساروا وراء الحمل كذلك ترى اليوم الكنيسة المكسيكية المضطهدة ابناءها الشهداء يسيرون مظفرين وراء الحمل الالهي

سمح الله بالاضطهاد لكي يستفيق الفاترون من غفلتهم لانه لا مناص لهم من احد امرين اما ان يسيروا في جيش المجاهدين في سبيل الايمان فيعيشوا عيشة مسيحيّة حقيقية واما ان يناصروا الحكومة على الكنيسة. ولكن لا ريب ان الاكثرين يعودون الى ممارسة واجباتهم الدينيّة بغيرة ونشاط وبعد سنين غير عديدة يكون مات كالس وانقرضت دولته اما الكنيسة الكاثوليكية فتكون خرجت من العاصفة ظافرةً نشيطةً مستعدّة لفتوحات جديدة.

فليحيَ المسيح الملك!

شعراء النصرانية بعد الاسلام

شعراء القرون المتأخرة مباشرة بالقرن الرابع عشر

القسم الرابع

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٢ فخر الدين ابن مكانس

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ قال ابو المحاسن ابن تغري بردي في المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (Ms de Paris, 2071, ff. 40v): «هو عبد الرحمان بن عبد الرزّاق بن

ابراهيم الرئيس فخر الدين ابو الفرج وقيل ابو الفضل ابن شمس الدين ابن علم الدين الشهير بابن مكانس القبطي المصري الحنفي الاديب الشاعر». فمن لقبه والقاب اجداده ترى ما كان له من الشرف والاعتبار

﴿زمانهُ واعمالهُ﴾ قال ابو المحاسن في النجوم الزاهرة (ed. Popper ٧١) وفي المنهل الصافي (ibid.) «كان مولدهُ بالقاهرة سنة خمس واربعين وسبعمائة (١٣٤٤ م) ونشأ بها وتعانى قلم الديون وغلب عليهِ الادب حتى صار بارعاً فيهِ الى الغاية مع المشاركة الجيدة في انواع الادبيات. تولى نظر الدولة بديار مصر مدةً طويلة ثم صار وزيراً بدمشق فباشرها مدةً الى ان طُلب الى القاهرة ليستقرَّ بها وزيراً فاستعفى (فاستسقى ؟) في الطريق فدخل القاهرة ميتاً وقيل مات بعد ايام في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٩٤ه (١٣٩٢ م)».

﴿دينهُ﴾ وُلد فخر الدين ابن مكانس نصرانياً لكنهُ أسلم رياء ليس رغبةً في الاسلام او اقتناعاً بصحَّتهِ بل طمعاً في الارتزاق وحبًّا بالمناصب الشرَفيَّة. واسنا لنروي ذلك جزافاً بل اثباتاً للحقيقة التاريخيَّة ولنا على قولنا اصدق شاهد في ما ذكرهُ ابن تغري بردي في المنهل الصافي عن المقريزي قال ما حرفهُ الواحد: «قال المقريزي بعد ان أثنى على ادبهِ (اي ابن مكانس) وفضلهِ إلَّا انهُ كان لعراقة آبائهِ في النصرانيَّة يستخفُّ بالاسلام واهلهِ ويُخرج ذلك في اساليبَ من سخطهِ وهزلهِ. أخبرني محمَّد بن ابراهيم البشتكي وكان قد عاشرهُ دهرًا طويلًا انهُ سمع المؤذن يقول في إذانهِ: «واشهد انَّ محمَّداً رسول الله» فقال: هذا يحضرُ لهُ ثمانمائة سنة تودي فيه للشهادة وما ثبتَ. ومات ولهُ عدَّة بنات نصارى. عاملهُ الله بما يستحقُّهُ» انتهى كلام المقريزي. قلتُ (القول لابن تغري بردي): هذا شأن سائر اقباط مصر قديماً وحديثاً إلَّا انَّ فخر الدين هذا كان انسلخ من ابناء جنسهِ بما اشتمل عليهِ من الفضيلة والادب والشعر الرائق» انتهى ما نقلناهُ عن المنهل الصافي وهو يؤيد ما قلناهُ عن النصارى الذين يعدلون الى الاسلام انهم انَّما يفعلون ذلك لغايات بشريَّة فيحقُّ لنا ان نتظمهم في سلك النصارى

﴿ادبهُ وشعرهُ﴾ كان فخر الدين ابن مكانس من كبار المتأدبين. ذكرهُ السيوطي في حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة (١: ٣٣٠) قال عنهُ: «انهُ كان وزير دمشق وناظر الدولة بمصر» وانهُ كان «احد فحول الشعراء ولهُ ديوان انشاء»

الّا انهُ قد غلط بذكر وفاتهِ سنة اربع وستين وثمانمائة والصواب ما رويناهُ انهُ مات سنة ٥٧٩٤. وقد جمع ابنهُ مجد الدين ديوان شعرهِ وانشائهِ منهُ نسخ خطيَّة في خزانة كتب باريس وبرلين ولندن وغرطا ومونيخ ومصر. وقد روينا لهُ في كتابنا مجاني الادب (٢ ع ١٠٩) منتخباً من ارجوزتهِ التي اوَّلها:

هل من فتًى ظريفٍ مُعاشرٍ لطيفِ
يسمعُ من مقالي ما يُرخصُ اللآلي

وهي طويلة وفيها يقول:

أسلكْ مع الناس الأدَبْ ترى من الدهر العجَبْ
لِنْ لهمُ الخطابا واعتمدِ الآدابا
لا تُغضبِ الجليسا لا توحِشِ الانيسا
لا تَصحَبِ الخسيسا لا تُسخطِ الرئيسا

وختمها بقولهِ:

فهاكها وصيَّهْ تصحبُها التحيَّهْ
تحملها الكرامُ اليكَ والسلامُ

وروى لهُ النواجي في حلبة الكميت (ص ٣٠٨ــ٣١٣) موشحاً طويلاً وصف فيهِ رياض القاهرة ومحاسنها فيقول منها (من الرجز):

يا كرْ الى جزيرة الفيل (١ التي تختال في افنانها كالجنَّةِ

١) جزيرة الفيل هي من جزائر نهر النيل قريباً من القاهرة دُعيت بذلك لانَّ مركباً كبيراً كان يُعرف بالفيل انكسر في موضعها. قال المقريزي في الخطط (٢ : ١٨٥) «وجزيرة الفيل هي الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة»

ولا تَمِلْ من وَجْهها لوِجْهَةِ صِفْ حُسنَها لمائها والخُضْرَةِ
وقِفْ بشاطيها ولا تُعَدِّي
واجلس من المنيَةِ جَنْبَ الشاطي في فُرُش الروضِ على بساطِ
فهي من التدبيج في إفراطِ عروسةٌ تختال بالأقراطِ
ومن لآلئ نَوْرها في عِقْدِ

ومنها قولهُ في بئر البلسم في المطرية وهي البئر التي قدَّسها السيد المسيح فأنبتت البلسم قال :

وانظر الى انوارِ بئرِ البَلْسَم فهي سبيلُ صحَّتي من سَقَمي
لكونها فيما يقالُ تنتمي الى المسيح السيِّد ابن مريمِ
مُحْيي بإذْن اللهِ مَيْت اللَّحْدِ
بئرٌ لها التعظيمُ والجلالَهْ بدرٌ أنارَتْ واستنارتْ هالَهْ
أنموذجُ الفردوس لا محالَهْ فيها عن الجَنَّةِ أيْ دلالَهْ
تُذكِّر الناسَ نعيمَ الخُلْدِ

وقال يعاتب صديقاً اسمهُ سراج الدين الاسكندراني لهجرهِ الخلّان ويدعوهُ الى مجلس أُنس (من البسيط) :

يا ذا الذي فكرُهُ مثلُ اسمهِ يَقِدُ فَدْتَ عنّا وما من شأنِك الفَنَدُ
بمَ اعتذارُكَ عن هذا الصدودِ لنا هذا وقد ضمَّنا بالجيرةِ البَلَدُ
عافاكَ ربُّكَ من داء القطيعةِ بل شفاكَ من داءِ أمرٍ كانهُ نَكَدُ
فيمَ التَّواني وشهرُ الصوم مقتبلٌ عن خمرةٍ ضوءُها في الكأس يتّقِدُ

وفتيةٍ مُخلصينَ الودَّ قد جبلوا ... على المحبَّة لا حقدٌ ولا حسدُ
ان ذاعَ وصفُكَ في نادِيهِمُ طَربوا ... او جالَ ذكرُكَ فيما بينهم سَجدوا
اذا هجرتَ بني الآداب فأبدُ لنا ... بِمَ أعتذارُكَ لا اهلٌ ولا ولدُ
ما هكذا تفعلُ الدنيا بصاحبها ... فالناسُ بالناس والاخوانُ تُفتقَدُ
وبعدُ فاحضُرْ وذنبُ البُعدِ مغتفرٌ ... وان تطاوَلَ من هجرانِكَ الأمدُ
لازلتَ ترقى على زهرِ النجوم عُلًى ... ما هَبَّتِ الريحُ اقواماً وما رصدوا

ومن حُسن اوصافهِ قولهُ يصف دوحةً وارفة الاغصان على شاطئ النيل (من البسيط) :

يا سَرحةَ الشاطئِ المُنسابِ كوثرُهُ ... على اليواقيتِ في أشكالِ حَصباء
حلَّت عليكِ عَزالِيها السحابُ اذا ... نوءُ الثُّرَيَّا استهلَّت ذات أنواء
وان تبسَّم فيكِ النَّورُ من جَذَلٍ ... سقالكِ من كلِّ غيمٍ كلُّ بَكَّاء

ومنها :

لن يُدركَ الطَّرفُ اقصاها على كَلَلٍ ... حتى تعودَ لهُ لَحظاتُ حَولاء
مالت على النهر اذ جاشَ الخريرُ بهِ ... كأنَّها أُذُنٌ مالتْ لإصغاء
باكرتُها في سَراةٍ من أصاحبنا ... لا ينطوونَ على حِقدٍ وشَحناء
تَداعبوا في معاني شعرهم فأرَوا ... ردَّ الاحبَّةِ في الفاظِ أعداء

ومن شعرهِ قولهُ يذكر ابنهُ فضل الله (من الطويل) :

أرى وَلَدي قد زادَهُ اللهُ بَهجةً ... وكمَّلَهُ في الخَلقِ والخُلقِ مُذ نَشا
سأشكر ربّي حيثُ أُوتيتُ مثلَهُ ... وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَن يشا

ولمّا تسلطنَ الملك الظاهر برقوق سلطنتهُ الثانية سنة ٧٩٢ (١٣٩٠م) غضب على الصاحب فخر الدين ابن مكانس. قال ابن اياس (١ : ٢٩٣) : « ضربهُ علقةً قويّة. ثم علّقهُ من رجليهِ بسرياق (١ فاقام وهو منكوس على رأسهِ نصف نهار ثمّ انّ بعض الامراء شفع فيهِ فأنزلوهُ فقال في هذه الواقعة (من البسيط) :

وما عُلّقتُ بالسرياق منتكساً ... لزلّةٍ (٢ اوجبَتْ تعذيبَ ناسوتي

لكنّني مذ نفثتُ السحرَ من ادبي (٣ ... عُذّبتُ تعذيبَ هاروتٍ وماروتِ

وقال يذكر يوم الحساب (من الكامل) :

واسوْتاهُ اذا وقفتُ بموقفٍ ... ما ينجلي فيهِ سوى الإقرارِ

وسوادُ وجهي عند اخذ صحيفتي ... وتطلّعي منها شبيهُ الفارِ

﴿ اخوهُ عبد الكريم ابن مكانس ﴾ أسلم كاخيهِ فخر الدين وتعيّن قاضياً وذكرهُ ابن اياس في تاريخ السنة ٧٨٨ (١٣٨٦م) قال (١ : ٢٦٤) « وفيها طلع السلطان الظاهر برقوق على القاضي عبد الكريم ابن مكانس واستقرّ بهِ في نظارة الجيش عوضاً عن موفّق الدين ابي الفرج الذي ضربهُ مائة وخمسين عصاً. ثمّ قال (ص ٢٦٦) في تاريخ سنة ٧٨٩ (١٣٨٧م) :

« وفي ربيع الاوّل جرت واقعة غريبة وهي انّ السلطان دخل الى القصر الكبير في غير يوم الموكب فلما جلس بالشبّاك رأى خشبةً على بُعدٍ مضروبة في الروضة على شاطئ النيل فبعث من كشف عن خبرها. فلمّا عاد القاصد اخبر السلطان انّ بتلك الخشبة كريم الدين الصاحب بن مكانس ومعهُ جماعة وهم يشربون الخمر فارسل اليهم جماعةً من المماليك فاحضروهم بتمامهم وكمالهم بين يدي السلطان فأمر بضرب الصاحب كريم الدين بالمقارع وقرّر عليهِ خمسين الف دينار وعفا عن الباقين. وهذا من الغرائب »

---

١) لم نجد للسرياق ذكراً في كلّ المعاجم العربيّة ولعلّها التركية « صريق » وهي خشبة كبيرة كانوا يعلّقون عليها المجرمين يدعوها الفرنج «pilori»

٢) ويروى : لحرمة

٣) ويروى : من غزلي

وفي ذكر هذه الرواية ما يريبنا عن صحة اسلام كريم الدين ابن مكانس كاخيه فخر الدين . ولم نقف على تاريخ وفاته

﴿ابنهُ مجد الدين ابن مكانس﴾ هو ابن فخر الدين الذي سبق ذكرهُ قال ابو المحاسن بن تغري بردي في تاريخ سنة ٨٢٢ (١٤١٩م) يذكر وفاتهُ : « وتوفي الاديب الفاضل مجد الدين فضل الله ابن الوزير الاديب فخر الدين عبد الرحمان بن عبد الرزاق ابن ابرهيم بن مكانس القبطيّ الحنفي الشاعر المشهور في يوم الاحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر . ومولدهُ في شعبان سنة تسع وستين وسبعمائة (١٣٦٨م) ونشأ تحت كنف والده وعنهُ اخذ الأدب وتفقّه على مذهب ابي حنيفة رضَ وقرأ النحو واللغة وبرع في الادب وكتب في الانشاء مدّةً وكانت لهُ ترسّلات بديعة ونظمٌ رائعة ومن شعره قولهُ (من الوافر) :

بحقّ اللهِ دَعْ ظُلْمَ المُعَنَّى ... ومَتِّعْهُ كما يهوى بأُنسِكْ
وكيفَ الصدُّ يا مولايَ عمَّنْ ... بيومكَ رُحتَ تَهْجُرهُ وأمسِكْ

ولهُ في محاسن روض (من الوافر) :

تَساوَمْنا شذا ازهـار روضٍ ... تحيَّرَ ناظري فيـهِ وفِكري
فقلتُ نبيـعُ الأرواحَ حقّاً ... بعَرْفٍ طَيِّبٍ منـهُ ونَشْري

وقال يمدح الشيبَ لبعثهِ على التوبة (من الطويل) :

جزى الله شيبي كلَّ خَيرٍ فـأنَّهُ ... دعاني لما يُرضي الإلهَ وحرَّضـا
فأقلَعتُ عن ذَنبي وأخلصتُ تائباً ... وأمسكتُ لمّا لاح لي الخَيطُ أبيضا

ولمجد الدين ديوان شعر منهُ نسخة في مكتبة برلين . وقد ذكرهُ السيوطي في كتاب حسن المحاضرة فقال عنهُ : «ترماني الادبيّات ومهر ومات بالطاعون»

٢ شاكر بن ريشه القبطي

هو ايضاً كما يظهر من اسمه ونسبه من نصارى الاقباط المرتدّين الى الاسلام لطمع في النفس كما رأيت في فخر الدين بن مكانس . وغاية ما وقفنا عليه من ترجمة حياته ما ورد في كتاب ابن حَجَر العسقلاني المعنون بالدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (Ms. du British Museum Suppl. 613-4,) قال: «هو شاكر بن ريشه القبطي الوزير تاج الدين وُلي نظر الخاص بعد مَقْتل صرغتمش[1] وولي الوزارة بعد ابن الحصيب وكان يتعانى الآداب وينظم الشعر مات سنة ٧٦٥هـ (١٣٦٤م)»

ولم نقف على شيء من شعره . وقد ذكر ابو المحاسن بن تغري بردي في المستوفي بعد الوافي (Ms de Paris, I, ff. 31) اخاهُ عبدالله . قال: «عبدالله بن ريشه امين الدولة القبطي الأسلمي ناظر الدولة . كان المذكور من اعيان الكتبة الاقباط وباشر في عدّة خدم بالطالع والنازل (كذا) حتى ولي نظر الدولة واستمرّ الى ان توفي في ليلة الاربعاء سادس جمادى الاولى سنة ٧٩٠ (١٣٨٨م)»

٤ يوسف بن رزق الله الموقّع

كان ايضاً من اقباط مصر الاسلميين . ذكرهُ ابن حجر العسقلاني في الدُّرَر الكامنة (ibid l. c.) قال: «يوسف بن رزق الله الموقع جمال الدين ابن اخت شرف الدين بن فضل الله باشر التوقيع بصفد وبغزّة قبلها وكان لهُ كرم ومروءة ولهُ نظمٌ وسَط وعُمر طويلًا لعلّهُ قارب الثمين ونُقل سمعهُ لكنّ حواسّهُ كلها صحيحة وهمّتهُ همّة ابن ثلثين وهو يباشر الترقيع في صفد سنة ٧٤٤ (١٣٤٣ م)

(له بقية)

---

١) كان احد كبار الامراء في خدمة الملك الصالح صلاح الدين ابن الملك الناصر حسن . قال ابن اياس في كتاب تاريخ مصر في تاريخ سنة ٧٥٥ عند عودة الملك الى السلطنة: «وصار الامير شيخو والامير صرغتمش في دولة الناصر حسن صاحبي الحلّ والعقد ومدبّري المملكة» ثم قال في تاريخ سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧ م) انّ الامير صرغتمش ترايدت عظمتهُ فصار في رتبة الاتابكي . ثمّ قبض عليه السلطان وحبسهُ فمات في حبسه سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م)